إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

فى ديسمبر عام ١٩٧٧ كتبت مقالاً بعنوان «هل آن الأوان لمواجهة الواقع» تناولت فيه تحليل الوضع العربى الراهن آنذاك ، والقضية الفلسطينية ، والدور المصرى. إلا أن هذا المقال لم يقدر له النشر واحتفظت به ضمن أوراقى الخاصة ربما لأن الأفكار التى طرحتها لم تكن تلائم المرحلة ، أو كانت تعد هرطقة سياسية ، ولكن خلاصة تلك الأفكار هى الدعوة لضرورة إعادة الوعى للشعب الفلسطينى ليتولى بنفسه تقرير مصيره ، ورفع الوصاية العربية عنه ، وكذلك أهمية اضطلاع مصر بدور قيادى فى العالم العربى ، ليس هو دور الشقيقة الكبرى ، الذى يتردد كشعار أحيانا ، إنما هو دور يقارب ما يوصف به دور رئيس الوزراء فى النظم البرلمانية ، إنه الأول بين متساوين ، خاصة فى ظل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية فى العالم العربى ، دور ينبع من التراث والحضارة ، إنه يمكن أن يكون دور القاطرة أو دور صاحب المبادرة ، إنه ليس دورًا يقوم على الفرض والإملاء ، أو على التراجع والانزواء ، كما طالبت فى ذلك المقال بعبور داخلى مصرى لإصلاح الأوضاع والقضاء على البيروقراطية والروتين ، وإفساح المجال لتعدد حقيقى للأحزاب والآراء ، حيث يمكن الانطلاق لغد أفضل ، وإقامة بنيان أكثر رسوخا واستقرارًا.

وأشعر وأنا أعود لهذا المقال فى مطلع عام ١٩٩٩ ، الذى وجدته صدفة وأنا أقلب أوراقى ، أن كثيرًا مما كنت أفكر فيه قد تحقق ،

ولكن فى نفس الوقت أدرك أننا ، كعرب أولا وكمصريين ثانيا ، ما نزال نقف على أعتاب مفترق طرق ، بعد أن عصفت التغيرات الدولية والإقليمية بكثير مما كنا نعتقد أنه من الثوابت ، وفى نفس الوقت لم يتطور فكرنا ومنهجنا العملى بما يتلاءم مع المتغيرات ويستوعبها ، وأخشى ما أخشاه أنه إذا لم نجد البوصلة السليمة ، للتأكيد على هويتنا وهى واضحة ولا لبس فيها ، وإنما عليها غلالة من التراب والشك ، وبلورة دورنا وهو غير محدد ، ويعتريه حالة من تأثير سيولة المتغيرات الدولية ، وصياغة فكرنا وهو الذى أصابه بعض التشويش بفعل فترات من القمع والقهر ، أقول: إنه فى هذه الحالة يخشى أن يكون تهميش وضعنا ، وتحولنا إلى حالة جديدة من التبعية هو المسير الذى ينتظرنا . ما لم نضع الخطة السليمة ، ونجعل العمل هو القيمة العليا لتقييم الأفراد فى المجتمع ، وما لم نساير المتغيرات وفى مقدمتها تلك المتعلقة بإعلاء مفهوم حقوق الإنسان والديمقراطية ، وما لم ندرك طبيعة أمننا القومى بمفهومه الشامل وبلورة خطة للتعامل مع ذلك . آخذين فى الحسبان كافة هذه الاعتبارات والمتغيرات.

لقد حاولت جهدى أن أبحث فى تلك الموضوعات المتصلة بنا كأمة ، وبدورنا ، وبعلاقاتنا مع دول الجوار ، ولست أزعم أننى أقدم فلسفة ، أو أطرح حلولاً ، وإنما أسعى فقط للتعريف ببعض القضايا المتصلة بنا كعرب ، وبدورنا ، ونحن على أعتاب القرن

الحادى والعشرين. وقصارى ما أتطلع إليه هو إثارة الاهتمام بهذه القضايا ، فإذا كان التوفيق حليفي فهذا من فضل الله ، وإن حدث أى تقصير فى التحليل أو فى إدراك أبعاد القضايا فإن ذلك مسئوليتى وحدى.

ولا شك أن هذه الدراسة تقوم على الإيمان بالانتماء إلى أمة عربية، وأن هذه الأمة لها دورها التاريخى ، ليس استنادًا إلى مفاهيم غيبية أو مثالية ، وإنما انطلاقا من اعتبارات موضوعية تاريخية وثقافية ، واعتبارات مصلحية اقتصادية وسياسية وأمنية ، ومع هذا فإن هذه الأمة العربية ما تزال تعانى من الخلاف والاختلاف ، من التجزئة والتشرذم وهذا يرجع لطبيعة مرحلة التطور الاجتماعي والاقتصادى من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرجع إلى دور النخب والقيادات السياسية والفكرية كما يرجع من ناحية ثالثة لتأثير العوامل المتصلة بالسياسة الدولية ومصالح القوى المسيطرة فى العالم. وأيا كانت الأسباب ومهما كانت العقبات فإن ذلك لا ينبغى أن يحجب الرؤية الصحيحة ، أو أن يدفعنا إلى حالة من اليأس ، وإنما علينا أن نعمل دائبين ، غير مكترثين بالصعوبات والعقبات ، التى ينبغى أن نحللها بموضوعية ، وأن نعالجها بالتدريج لنبنى لبنة فوق لبنة ، لعل الصرح يكتمل يوما ما ، وإذا انهار لسبب أو لآخر ، فإن الأجيال التالية سوف تدرك أننا بذلنا الجهد ، وأن مسئوليتهم أن يواصلوا العطاء لاستكمال البنيان.

لا شك أن الجيل الذى أنتمى إليه عاش فى خضم الحركة والفكر والنشاط المتصل بالمد القومى العربى هذا المد كانت له أبعاده المتنوعة من سياسية واقتصادية وفكرية ، وباختصار أنه كان دعوة لبناء الأمة أو ما يطلق عليه البعض الآن المشروع القومى العربى. وهذا الجيل يواجه الآن مأزق الوضع الراهن ، ولذا فهو لا شك يعانى مما نراه من حالة التردى والتمزق فى عالمنا العربى فى هذه اللحظة التاريخية. ويطرح التساؤل الملح والمستمر والمختلط بمشاعر متنوعة هل يمكن إعادة اللحمة من جديد أو هل يمكن السعى لبناء روابط عربية مهما بدت محدودة وجزئية إنها تشكل لبنات فى بناء كبير لعله يتحقق يوما ما فى المستقبل أو على الأقل فإن الأمل كبير فى إيقاف حالة التردى والتدهور الحالية وخاصة حالة الإحباط النفسى التى تصيب الكثيرين.

وأبادر للقول بان النظام العربى لا شك يواجه مأزقا حقيقيا وقبل أن نحلل أسباب هذا المأزق وكيفية الخروج منه علينا أن نكون صرحاء غاية الصراحة فى نقد أنفسنا ، أمناء غاية الأمانة فى تشخيص الداء . واقعيين غاية الواقعية فى رسم خطط المستقبل.

ولعل الصراحة تقتضى أن نقول· إن كثيرًا من المثقفين العرب لم يؤدوا دورهم كما ينبغى وانقسموا شيعًا على أحسن الفروض واستراح بعضهم لبريق المال وإغراءات السلطة والمنصب ، ومن هنا تصارعوا مع بعضهم البعض ، كل فريق من المثقفين ناصر فريقًا من ذوى السلطة والسلطان مما دفع المفكر الكويتى د. محمد الرميحى لكى

يكتب مقالا فى جريدة الحياة فى ١٩٩٤/١١/١٧ ينعى فيه هذه الحالة بعنوان: «المثقفون العرب هل هم فى حاجة إلى تثقيف؟».
ولم يقدر للمجتمع العربى أن تظهر لديه شخصيات من بين المثقفين ورجال الفكر السياسى يسمو حقيقة على المطامع والأهواء على غرار «مونيه» داعية الوحدة الأوروبية أو على غرار «جاك ديلور» ودوره فى العمل من أجل الاتحاد الأوروبى.

ومن باب الأمانة نقول إن عجز كثير من المثقفين قاد إلى عجز النظم واهتزاز القيم ، فخرج الجيل الحالى ليجد نفسه ممزقًا ما بين تيارات متصارعة ، وهزائم متلاحقة ، وتخلف مستمر ، وشعارات لم تتحقق ، فظهر ما عرف باسم أزمة الانتماء أو اغتراب الشباب والمثقفين دون أن يقدر لجيل الثمانينات والتسعينات اكتشاف طريق حقيقى للأمل والتطلع للمستقبل ، وازداد الأمر سوءًا إن بعض المثقفين عادوا يطرحون التساؤل حول أساسيات مثل: الانتماء العربى والنظام العربى والأمن العربى وكأننا نعود القهقرى ، فى حين أن العالم كله ينطلق للأمام بالدعوة للتكتلات السياسية والاقتصادية ، ونحن نحلم ونفكر ونتصرف بعقلية عصر الطوائف والملل والنحل التى جلبت الكوارث على الأمة العربية والإسلامية.

إنه من واقع معايشتى لهياكل النظام العربى ومؤسساته المتعددة ولنصوصه ومواثيقه أقول: إنه لا تنقصنا هذه الهياكل ، ولا تنقصنا المواثيق ، وإنما ينقصنا المصداقية ، وتنقصنا الإرادة والعزيمة ، إن ما ينقصنا فى المقام الأول هو القيم العملية الحقيقية التى يجب أن نربى عليها الجيل لعل الأمور تنصلح فى المستقبل.

إننى ألمس فى قاهرة المعز لدين الله ما أطلق عليه البعض «ألف مكلمة ومكلمة» استعارة مما يقال: إن بالقاهرة «ألف مئذنة مئذنة». كثيرًا من الندوات ومراكز الأبحاث والأوراق ، ولا يخامرنى أدنى شك أن بعض البلاد العربية بها ندوات مماثلة ، ولكن يمكن القول: إن قليلين هم الذين يحرصون على تنفيذ تلك الأفكار العظيمة، أو حتى يقرءون ويحللون ، قد يقال: إن المثقف أدى دوره بطرح فكره وتصوره للمستقبل ، وفى تقديرى المتواضع ، أن هذا لا يكفى ، إن المثقف عليه أن يسعى لوضع أفكاره موضع التنفيذ وأن ينقلها إلى صاحب القرار ، يحاوره ويجادله حتى يقنعه. كثيرة هى الأفكار المثالية التى يطرحها المثقفون ويستريح ضميرهم بهذا ، ولكن هذا لا يكفى ، إن المطلوب أن يتفاعل المثقف بعقلانية وواقعية مع البيئة التى يعيش فيها ومع صانع القرار قبل أن يتخذ القرار ، وأن يؤثر على الحركة السياسية ، وعلى الأحزاب والتنظيمات أن تعمل من أجل تغيير الواقع العربى بأسلوب ديمقراطى من خلال العمل السياسى الحقيقى.

أما عن الهياكل المؤسسية العربية الكثيرة فلابد من إعادة النظر فيها وتقليصها واستبعاد ما يمثل الازدواجية وانعدام الفعالية وتحويل جامعة الدول العربية إلى إطار حقيقى للعمل العربى المشترك ، كما يجب أن تعيد جامعة الدول العربية النظر فى أسلوب عملها ووضعية موظفيها وحصيلة أدائهم لعملهم وكذلك أن تعيد الدول العربية تقييم موقفها من قرارات الجامعة العربية وتنفذ ما يتفق عليه بإخلاص ، وتعترض على ما لا توافق عليه بشجاعة ، حتى إذا ما تم اتخاذ قرار

ما فلابد من الالـتزام بـه وتنفيـذه كـاملا علـى نحـو مـا يحـدث فـى الاجتماعات الأوروبية.

إن القادة العرب عليهم أن يدركوا أن حركة التاريخ ومسيرته تربط مصير هذه الأمة بعضـها ببعـض ، ولكـى يعيشـوا فـى إطـار التـاريخ وليـس علـى هامشـه أو خارجـه ، فلابـد مـن أن تتحـد كلمتـهم وقراراتهم ، وأن يدرسوا بدقة المتغيرات التى حولهم والتحديات التى تواجههم وأن يرسموا الطريق للخروج من هذا المـأزق ، وليـس هنـاك من يستطيع أن يفرض إرادتـه وسـلطته علـى رجـال السياسـة سـوى المثقف العربى المدرك حقيقة دوره ، والواقع التـاريخى الـذى يعيـش فيه ، والمستقبل الذى يتطلع إليه ، ومـن هنـا فـإننى أدعـو المثقفـين قبل غيرهم أن يتحركوا ويضطلعوا بدور اللوبى الضاغط لتحقيق الوئام العربى وتجميع الصفـوف وبعـث العمـل العربـى المشـترك وتنشـيطه ودفعه دفعا لتحقيق ولو الحد الأدنى من الآمـال العربيـة المشـتركة ، وبدون مبالغة أو زهو فإن على المثقـف المصرى مسئولية خاصـة فـى الاضطلاع بدور الريادة للمثقفين العرب فـى تجميـع الصفـوف وحفـز الهمم وليس ذلك أمرا سهلا لاعتبارات عديدة منها تعـدد الانتمـاءات الفكرية للمثقفين ، ومنها المعاناة المعيشية والارتباط بمصـادر متعـددة للدخل ، ولكن من الضرورى المحاولة ، وقرع الأجراس للتحذير مـن المخاطر القادمة قبل أن تقرع الأجراس لنا عندما يصبح الخطر حقيقة محدقة بل ماثلة.

من هذا المنطلق الفكـرى والمرتبـط بالأزمـة والمـأزق العربـى الراهـن أعددت هذه الدراسة والتى تنقسم إلى الفصول الخمسة التالية :

الفصل الأول: طبيعة المتغيرات فى عالم اليوم.

الفصل الثانى: موقف الأمم المتحدة من القضايا العربية.
الفصل الثالث: تحديات المستقبل أمام جامعة الدول العربية.
الفصل الرابع: الموقف العربى من قضية حقوق الإنسان .
الفصل الخامس: البعد الاقتصادى فى العمل العربى المشترك.

ويرجع اختيار هذه الموضوعات للدراسة إلى ارتباطها الوتيق بالمتغيرات فى عالم اليوم والحاجة لتحليل الوضع العربى من خلالها بهدف إثارة الاهتمام بالحلة الراهنة غير المرضية وغير المطمئنة لعل ذلك يكون حافزا لإعادة التفكير من قبل القيادات السياسية والنخب الفكرية والجماهير الشعبية فى وسيلة للخروج من المأزق.

ويمثل البعد الاقتصادى وحقوق الإنسان جوهر الأزمة فى العالم العربى، أما الأمم المتحدة وجامعة لدول العربية فإن الهدف من تناول موقفهما هو بيان وضع المنظمة الدولية والمنظمة الإقليمية من تلك القضايا وغيرها ذات الصلة بإعداد العالم العربى للقرن الحادى والعشرين فى ضوء خبرة أكثر من نصف قرن من حياة هاتين المنظمتين.

وتأتى هذه الدراسة لتتكامل مع دراسة سابقة بعنوان »مستقبل الأمن العربى« وبهذا فإنه يحدونى لأمل أن أكون قد قدمت صورة شاملة أو شبه شاملة عن العرب فى البيئة الدولية المتغيرة. وهم فى مفترق الطرق على أعقاب القرن الحادى والعشرين وكم أكون فى غاية السعادة إذا بدأ كسر طوق الحلقات المفرغة التى يسير فيها العمل العربى المشترك .